أمثلة من الترجمة

Gunter Scholtz
Philosophie des Meeres

mareverlag, Hamburg 2016
ISBN 978-3-866-48249-4

صفحات 5-25 & 259-260

جونتر شولتس
"فلسفة البحر"
ترجمة شريف الصيفي

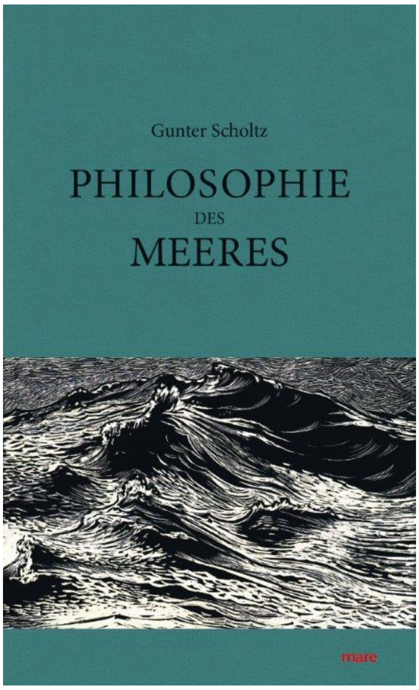

© 2017 Litrix.de

المحتوى

مقدمة
إبحار في بحر الفلسفة

1. الماء بوصفة مبدأ كل شئ 13
كل الوجود واحد 13
كل شئ يتدفق على الدوام 26

2. أطلانطس القديمة والحديثة 35
السؤال عن الخير 35
البحث عن المنفعة 52
الجُزُر السعيدة 64

3. حرية البِحَار 73
الملكية المشتركة للبشر 73
من الإنسانية إلى التصنيع 85

4. النظرية والبحر 101
نمطان للتصور القديم عن العالم 101
الفلسفة الحديثة للحياة 121
التحول إلى أخلاقيات بيولوجية 131

5. مرأى السمو 143
من نظرية للكون إلى رؤية البحر 143
نزاع حول فلسفة جمال الطبيعة 159

6. مرآة الروح والوجود 179
ثلاثة شهادات للبحر 179
أمواج البحر للروح والقدر 192
الإبحار بلا مرفأ 204

7. البحر وتاريخ العالم 215
أساس التقدم 215
نهاية تاريخ التقدم 233

© 2017 Litrix.de

استعراض مختصر للرحلة 251

ملحق

ملاحظات 259

فهارس 273

مقدمة

إبحار في بحر الفلسفة

إن ما يُطلق عليه هنا "فلسفة البحر" ليس فلسفة خاصة جديدة، أو فرعًا من فلسفة الطبيعة، تتموضع بجوار فلسفة الروح والدين والفن .. إلخ، بل هي على نقيض الفلسفة العامة تمامًا. فهي تتمحور حول سؤال أساسي، سؤال حول علاقة التفكير الفلسفي بالبحر. وهذا له ميزة، حيث يُمكِّن المرء من استخدام شئ واضح كدليل للسير عبر التضاريس الجافة للمفاهيم.

البحر ليس كيانًا عديم الأهمية، ولهذا كُتب عن علاقته بالفلسفة.[1] في النهاية يغمر الماء ما يقرب من ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، والإنسان حيوان برّي يمشي على ساقين،و البحر بالنسبة له غير مألوف وخطر، وحيث يبدأ البحر هناك ينتهي مجال الحياة لحيوانات اليابسة. وفي هذه العلاقة مع هذه المنطقة الغريبة تحديدًا تتكشف ماهية الإنسان. فهو قادر فقط وفقًا لقدراته الابتكارية علىالتوغل بعيدًا في البيئة الخطرة من خلال بناء العوامات والقوارب والسفن ومعدات الغوص. يكتسب الإنسان معرفة دقيقة بالبحر فقط بوصفه "هومو فيبر"، أي "إنسانا خالقا"، بوصفه تقنيًا وكيانًا ثقافيًا، كما إن علاقته بالبحر تدُل على حالته الثقافية، والفلسفة جزء منها وتعكسها في نفس الوقت.

كل ما يفكر فيه الإنسان، ويقوله ويكتبه، يحدث من منظور ساكن اليابسة، فلو كان حيوانًا بحريًا بخياشيم وزعانف كان سيرى العالم بشكل مختلف وسيكون له فكر مختلف وفلسفة مختلفة. إن الإجابة على السؤال حول كيفية سلوكه تجاه اليابسة والجفاف، لو كان حيوانا بحريا، سيقود إلى توصيفه بدقه أكبر؛ فربما إنشغل تفكيره كثيرًا وهو مفعم بالخوف والفضول بما تتيحه الأرض الخلاء والأرض الجافة، وبإمكانية الحياة على خارج الماء. وعندها كان سيثبت أنه حيوان بحري، وكان سيعرف من خلال ذلك فقط ما معنى العيش في الماء وأن يكون حيوانًا بحريًا. فمن خلال الرطوبة غير المألوفة نعرف شيئًا عن الجفاف المعتاد والعكس، وفقط من خلال خبرتنا بالليل يتبلور لدينا مفهوم النهار.

إذا أراد الإنسان معرفة ماهيته يجب عليه قبل كل شئ معرفة : مالا يكونه. من خلال العُرف السائد وعىَ أنه ليس إلهًا، وفي نفس الوقت – مع أنه حيوان يحيا على اليابسة - فهو ليس حيوانًا عاديًا، بل حيوان من طراز خاص، كما قال أرسطو، فهو *حيوان يستطيع الكلام والتفكير*، ومن خلال ذلك يختلف عن الحيوانات الأخرى. إذا أراد المرء معرفة الإنسان عن قرب فمن المفيد أن نعرف، *كيف* يفكر وكيف يتكلم، لأنه يفعل ذلك بطرق متباينة للغاية، فالشاعر يفكر ويتكلم عن البحر بشكل مختلف عن عالم الكيمياء. وتُعد الفلسفة نمط خاص من التفكير والكلام، وهو ما نود هنا ملاحظته. وإحدى خصائصها تكمن في أنها تتعامل بالتفكير والكلام مع موضوعات، وغالبا تتعلق بالإنسان، وتركز دومًا على ذلك الذي يفكر ويتحدث، وهذا ما يسمى في العصر الحديث بعملية التأمل الذاتي. وحسب تعامل العقل مع الطبيعة، والبر والبحر يكون ذلك العقل.

لهذا كانت الفلسفة دوماً فلسفة الإنسان – بمعنى مزدوج: فالإنسان هو المُفكر وموضوع التفكير في الوقت ذاته، وينطبق الشئ نفسه على فلسفة البحر. إلا أن فلسفة البحر تختلف عن علم المحيطات، فبالرغم من أنه يتوجب على علم المحيطات اليوم فضلا عن العوامل الجيولوجية أخذ العوامل المدنية في الحسبان، مما يجعل للإنسان أيضا دورا فيه، إلا أن الأمر يدور هنا حول الإنسان وتأثيره على البحر، وليس حول الإنسان في حد ذاته، في حين أن فلسفة البحر لا يمكن أن تتجاهل ذلك الإنسان.

© 2017 Litrix.de

وكما في الرحلة البحرية، التي لا يتسنى للمسافرين في أثنائها سوى رؤية المدن فقط التي لا تقع في عمق اليابسة، فإن الرحلة الفكرية الوشيكة هنا يجب أن تقتصر على أماكن محددة؛ إذ يجب أن تقتصر النظرة هنا على الفلسفات التي يقوم فيها البحر بدور خاص، وبالتالي لن نذكر أشياء مهمة كثيرة، إلا أن ذلك قد لا يُمثِّل عيبا ، لأن عرض الفلسفة ككل سوف يرهق القارئ تماما كما يمكن للمشاهدة كل مُدن العالم أن تُرهق الزائرين. وحتى في نطاق الأماكن التي تتم زيارتها لا يكون هناك مناص عن ترك بعض الأشياء دون الالتفات لها، فمن غير الممكن تفقد وفهم كل ما هو جدير بالملاحظة على اليابسة عند كل محطة من محطات الرحلة البحرية، وهو ما ينطبق أيضا على جميع الفلسفات المذكورة أدناه التي كانت تستحق مناقشات أكثر تفصيلاً مما يمكن تقديمه في هذا السياق. ومع ذلك يمكن للرحلات البحرية أن توسع آفاقنا بأن تقدم معارف جديدة وتسمح بنظرة شاملة وتحُث على إجراء المقارنات.

تمامًا كما يسعى المرشد السياحي إلى ألا يكتفي بالحديث عن المعالم السياحية بل أيضاً أن يعرضها فسننتهج هنا نفس النهج وذلك من خلال ذكر بعض المقولات الأصلية؛ وعليه فلن يكون المرشد السياحي هو المتحدث فقط ، بل ستنطق النصوص بنفسها. قد يكون للغة الفلاسفة أحيانا رنينا غير مألوف، إلا أنه ما يكون غالبًا لطابعها الغريب سحره الخاص، مثل طراز معماري فريد.

وإذا كانت الرحلة داخل مملكة العقل تتشارك مع الجولة السياحية في الالتزام بالاختيار والتحديد، فإنها، أي الرحلة داخل مملكة العقل، تتمتع بميزة هائلة. فعندما نغادر بالسفينة الميناء، يبقى المكان فقط لدينا في ذاكرتنا، ولكن على خلاف ذلك يستطيع المرء أن يعود سريعًا من الرحلة الفكرية في أي وقت إلى حيث كان، ويمكنه أن يُبحر بطريقة أكثر شجاعة، كما يمكنه التبديل بين مواقف متباعدة جدًا؛ على سبيل المثال التنقل بسهولة من فلسفة العصور القديمة إلى الفلسفة الحديثة والعودة مرة أخرى. ويكون ذلك في بعض الأحيان متاحا لأن بعض المناطق التي تبدو متباعدة ومتفرقة يمكن أن تكون في الحقيقة مرتبطة ببعضها البعض بشكل وثيق، أو لأن طابعها يصبح أكثر وضوحًا في تناقضها مع بعضها البعض.

علاوة على ذلك، فإن تعيين الحدود الفاصلة بين التخصصات الفلسفية غالبًا ما يكون أمرًا صعباً، إذ أن أي شخص على دراية بسيطة بالأدبيات ذات الصلة قد يفترض على أساس قائمة المحتويات وجود مواضيع شديدة التباين تتم معالجتها، مثلا الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) وفلسفة الطبيعة وعلم الأخلاق وفلسفة الجمال والفلسفة السياسية والفلسفة الاجتماعية، وفلسفة القانون وفلسلفة التاريخ. بينما المرء في أثناء رحلة بحرية يستطيع معرفة فيما إذا كان يبحر بمحاذاة الساحل الإيطالي أو اليوناني، فإن تخصصات الفلسفة لا تنفصل بوضوح عن بعضها بعضًا. في كتاب أفلاطون عن الدولة على سبيل المثال نجد ترابطًا وثيقًا بين الميتافيزيقا ونظرية المعرفة وعلم الاخلاق والسياسة والتربية وفلسفة الفن، وما إلى ذلك.

يعود هذا الترابط إلى طبيعة الفلسفة ذاتها، فهي مجال معرفي يتطلع لما بعد الحدود ويقاوم فكرة الاقتصار على مجالات محددة. وهكذا نجد أن الفلسفة لا تتماشى مع العصر الذي تتسم فيه العلوم بالتوجه نحو التخصص بصورة متزايدة ـ الفسلفة تخصص علمي ليس له تخصص محدد. وهذا هو السبب الذي يجعلها غير متماشية مع العصر، أم ربما يجعلها هذا السبب تحديدا عصرية اليوم؟ العالم الذي نحيا فيه مُقسم بطرق مختلفة، إذ توجد المدينة والريف، والمجال الخاص والعام، الصيف والشتاء وإلى ما غير ذلك، إلا أنه لا يمكن تقسيمها إلى تخصصات علمية، مثل الفيزياء والكيمياء، علم الاجتماع وعلم النفس. وبناء على ذلك تقف الفلسفة على مسافة أقرب من حياتنا اليومية مقارنة بالتخصصات الأخرى.

حتى الفيلسوف هيجل قد قارن تخصصه بالبحر. ففي سياق كلمته، التي استهل بها محاضراته في برلين عام 1818، تحدث لمستمعيه عن مغامرة التفلسف وقال – والمرجح أنها كانت صادمة للطلاب -، إن عالم الفلسفة هو عالم الأفكار، ولهذا يجب تنحية السمع والمشاهدة بالمعنى الحرفي:

من عَزم على التفلسف يلقي بنفسه بوضوح في الفكر (التفكير هو فعل إنفرادي في حد ذاته)– يلقي بنفسه في محيط بلا شطآن، كل الألوان المختلفة، وكل القواعد قد اختفت، وانطفأت كل الأضواء المألوفة الأخرى. نجم واحد منير، النجم الداخلي للعقل. هو النجم القطبي. لكن بطبيعة الحال، العقل في عزلته، مع نفسه وكأن الأهوال قد داهمته، فلا يعرف المرء، غايته أو إلى أين وصل.

لا ينبغي أن يصاب أحد بالقلق أو ينتابه خوف بشأن ذلك، فالمشارك في رحلة بحرية لا ينبغي عليه أن يقود بنفسه ولا أن يقفز في الماء سابحاً - ما دام كل شئ يسير على ما يرام.

© 2017 Litrix.de

.1

الماء بوصفه مبدأ أساسيًا

الكُل واحد

كان البحر مهد الفلسفة ، وكان مبدأها الأساسي هو الماء. اعُتبر طاليس الملطي الفيلسوف الأول في الحضارة الإغريقية القديمة، الذي عاش حوالي 600 ق. م. وكانت ميليتوس القديمة مسقط رأسه مركزًا تجاريًا إغريقيا قوي في غرب آسيا الصغرى، تقع على لسان أرضي داخل خليج ميليتوس.

لم يترك طاليس خلفه أي شئ مكتوب، ولا يمكن اعتبار أي مما ذكرته المصادر المتاحة عنه مؤكدًا تمامًا. لكن من المؤكد ولا خلاف عليه تماما، أن أرسطو أعلن في القرن الرابع ق. م. أن طاليس هو الفيلسوف الأول الذي رأى أن العالم كله يقوم على مبدأ وحيد: على الماء، وذلك بمعنى مزدوج.

وفقاً لشهادة أرسطو، كان الماء بالنسبة لطاليس السبب الرئيس في قوله بأن كامل اليابسة تطفو على الماء مثل قطعة خشب أو سفينة عائمة، فضلاً عن كونه المنبع، أي الأصل الذي منه تدفق كل شئ، والذي إليه يعود ليغرق فيه مرة أخرى.

ومن المؤكد أنها لم تكن مصادفة أن تتبلور الأفكار الفلسفية في عاصمة تجارية ذات موانئ واتصالات متعددة مع الخارج، فمن يحيا في مدينة كهذه يكتسب المعرفة بلغات وطرق تفكير مغايرة وعادات وديانات أجنبية، ومن خلال خبرة تنوع القناعات وأشكال المعرفة، تفقد أنماط التفكير الأصلية للفرد صفة البديهية. وهذا يمثل حافزًا على التفكير المستقل لا يكاد المرء تخيل وجود حافز يفوقه. فرواية حكايات مختلفة عن أصل العالم تدفع للتساؤل بشكل مباشر عما هو الصحيح من بينها وما هي الحقيقة. يُعد تنوع الآراء حافزا على الدوام ودافعا للتشكك ومحفزا على استخدام العقل. وأخيرًا فإن الحكي عن الشعوب الأجنبية يثير الفضول أيضاً: حتى إن المصادر تقول إن طاليس قد سافر إلى مصر للتعرف على المعرفة هناك.

حتى لو بدا منطقياً أن ساحل ميلتوس كان حوالي 600 ق. م. أرضا مناسبة لنشوء الفلسفة، فإن مبدأ طاليس الأساسي يظل غريبا، فعلى الرغم من أن الماء قد يكون أهم أساس لوجود الحياة، إلا أنه ليس سوى أساس ضروري، لكنه ليس شرطاً كافيًا لوجودها. لذا يبدو من غير المعقول أن نتصور أن العالم برمته قد انبثق من الماء. ومع ذلك فإن البحث عن مبدأ واحد وتسميته هو عين الفلسفة. وهذا ما اعتقده أرسطو أيضا، ويجب علينا تفسير ذلك.

تحدث أرسطو عن مبدأ طاليس في سياق عمله الأكثر أهمية ومحور كل أفكاره الذي سماه بنفسه " الفلسفة الأولى"، وكان ممكن ان يسميه " العليا"، لكن تلاميذه أعطوا الكتاب – الذي كان الأول من نوعه - عنوان "الميتافيزيقا" (ما وراء الطبيعة). وهو عمل يتناول أسس كل الموجودات والأفكار، كما يضم "علم العلل الأساسية"، كما قال أرسطو.

في سياق مناقشة العلل المختلفة أراد أرسطو مراجعة الفلاسفة الذين بالفعل تناولوا بالتفكير المبادئ الأساسية والعلل. كان الوصف الذي خطه أرسطو لفكر أقدم الفلاسفة مختصرا، لكنه على أهمية كبيرة، فمع سرد بداية الفلسفة يتحدد في نفس الوقت جوهرها.

عرف الفلاسفة الأوائل، حسب قول أرسطو، فقط المبادئ المادية. وكان تصورهم، أنها منشأ كل شئ وإليها يعود كل شئ. واعتبروا المبادئ نفسها أبدية وثابتة وغير قابلة للتغيير، فقط تتبدل كيفية حضورها. في نهاية المطاف كل نشوء وكل زوال يتطلب وجود شيئ يتسم بالاستمرارية. وفيما يتعلق بعدد هذه المبادئ وطبيعتها لم يسود توافق في الرأي. ويكمل أرسطو على النحو التالي:

> رأى طاليس، مؤسس هذه الفلسفة، الماء بوصفه المبدأ، وذلك هو سبب قوله بأن الأرض تطفو على الماء، ربما جاء بهذا التصور بعد أن شاهد أن غذاء كل الكائنات رطب، وأن الحرارة نفسها تنشأ من الرطوبة وتبقى حية بواسطتها (ولكن ما يصير منه كل شئ فهو مبدأ كل شئ)، من هنا وصل إلى فكرته، واستمد فكرته أيضاً من خلال فرضية أن بذور كل شئ ذات طبيعة رطبة، وأن الماء هو أصل طبيعة الأشياء الرطبة.[1]

طاليس إذن كان الفيلسوف الأول، لأنه سعى خلف مبدأ أخير لكل الأشياء، لأنه بحث عن مبدأ نهائي لكل شيء، أي عن الـArche ، وهي الكلمة اليونانية كما ذكرها أرسطو والتي تعني "البداية"، وفي الوقت نفسه تعني المبدأ أو الأساس.

ويعني بالبداية/ المبدأ: الوجود الحقيقي، الذي منه خرج كل شئ ويبقي هو نفسه بلا تغيير، رغم تبدل تجلياته. لا شئ ينشأ من العدم ويصبح عدما، لكن كل ما يحيا ويوجد يدين لوجوده في نهاية المطاف لهذا المبدأ، وسيتحلل فيه مرة أخرى.

السؤال عن هذا العلة الأولى فرض نفسه عندما أصبحت الحكايات عن أفعال الآلهة الخارقة غير مقنعة. فقد رأى المرء كيف نشأ البشر والحيوانات والنباتات ومساحات الأراضي، وكيف تفنى مرة أخرى. ولكن ماذا ظل باقيا، وكان السبب الأخير لهذا التغيير؟ يجيب طاليس، الذي كان على دراية بالعديد من الحكايات الأسطورية حول طبيعة ونشأة العالم: الدائم والثابت هو السائل، الماء. وبالتالي أسس طاليس العالم برمته على مبدأ جديد، ومختلف عن الآلهة، لا يشبه البشر بأي شكل من الأشكال. صاغ فكرته متحررًا من لُغو الآلهة الصاخب، الذي كان آنذاك يهيمن على الخيال والحياة العامة. ووجد سنده في المبدأ الأول – الذي هو ذاته أبدياً – يحمل ويحيط بكل نشأة وكل زوال.

كانت فرضية المبدأ *الوحيد* كفيلة أن تجعل من طاليس المؤسس الحقيقي للفلسفة، فكل من يقبل بمبدأين أو أكثر يترك خلفه السؤال حول كيفية إدراك التعددية، التي منها نشأت، ولماذا انفصلت المبادئ. إن البحث عن العلة الأولى يهدف ليس فقط إلى جمع عدد هائل من الظواهر في نقطة مشتركة، وفهمها في سياقها، لأنها خلاف ذلك تتجاوز إدراكنا، ولكنه، أي ذلك البحث، يأتي أيضًا كنتيجة للتفكير المنطقي. إن التاريخ الكامل للميتافيزيقا يشهد على الحاجة العقلية إلى تأسيس تنوع العالم على مبدأ وحيد، وترجع إليه كل شئ. وبذلك فقط يمكن الحيلولة دون التفكير (التشكيك المستمر من المعلولات في العلة) إلى ما لا نهاية وبلا أي استنتاج. حتى الفيزياء النظرية الحديثة عندما تبحث عن معادلة للعالم تجعل من الكون قابلا للتفسير فإنها تسعى إلأى إرجاع التنوع اللانهائي إلى مبدأ واحد، إلى وحدة واحدة.

© 2017 Litrix.de

كانت منذ فترة مبكرة توجد اعتراضات على فكرة أن طاليس قد أضاف شيئًا جديدًا إلى التاريخ. فحتى في العصور القديمة أشير إلى ذلك، إن الشعراء القدامى أمثال هوميروس أعلنوا بالفعل أن الإله القوي اوقيانوس، الذي من أسمه اشتق اسم المحيط أنه مصدر كل الخليقة[2]، ولهذا استنتج فيما بعد، أنه لا يمكن الحديث بعد عن قطيعة مع فكر الأسطورة من قبل طاليس. من يجادل هكذا فإنه يغفل أن أوقيانوس، الإله الشرس متقلب المزاج، الذي كان متزوجاً من الربة تيتيس (ربة الينابيع الصافية والأنهار، المترجم)، والتي أنجب منها أطفالاً كثيرين، لم يكن هناك ما يربطه مباشرة بالماء بوصفه المادة البدائية غير المُشخصة والتي لا شكل لها. هنا كانت هذه القفزة مهمة، فقد كانت القفزة بداية الفلسفة. ومع ذلك إذا كان الفكر الجديد يتقاطع مع أسطورة ما من حيث المحتوى، فقد لا يكون ذلك مجرد تأثير قوة نَظم هوميروس عن " أوقيانوس" الذي ظهر فيه بوصفه "سيد الفيض العميق وأب كل الآلهة"[3]، بل لأن التشابه يعود لقوة التجربة، التجربة الدائمة مع الماء، ومع البحر بشكل خاص.

وثمة اعتراض آخر أثير ضد طاليس بوصفه مؤسسًا لموقف فكري جديد نحو الواقع، فوفقاً لما أورده أرسطو كان طاليس يعتقد في وجود الآلهة. وربما كان السبب في ذلك تلك الفرضية التي تقول أن "الروح متداخلة في الكون."[4] إذا وثق المرء في هذه الشهادة، فهناك إيمان قديم بالآلهة، لكن أعيد تأسيسه من قبل طاليس، ليس من خلال التصورات الأسطورية، بل من خلال الفرضية الفلسفية بأن العالم محكوم من الروح. ربما كانت الآلهة والروح بالنسبة لطاليس كلمتان لنفس الشئ. لكن الشئ الأكثر أهمية هو ما توصل إليه من خلال تلك القناعة بالنسبة للمبدأ، ألا وهو الماء. كان طاليس مثل كل فلاسفة الطبيعة الأوائل تقريبًا يعرف فقط " المبدأ المتجانس"، كما قال أرسطو؛ لكن هذا المبدأ لم يكن بأي حال من الأحوال مانسمية اليوم "المادة"، بل على الأرجح كان المبدأ المادي للفلاسفة الأوائل الذي يشمل الحياة بشكل دائم، فهي مادة حية، أو حياة مادية. وهو الفكر الذي سمي فيما بعد "هيلوزوية" (حيوية المادة) لهذا السبب أيضًا كان الماء بالنسبة لطاليس شيئ آخر غير جزئ مكون من ذرتي هيدروجين وذرة أكسجين.

وكما جاء أعلاه في الفقرة المذكورة سعى أرسطو إلى تفسير تميز الماء بوصفه المبدأ الأساسي في سياق أهميته الكبرى للحياة التي تفنى دون الماء. وإذا أخذنا نظرية "حيوية المادة" (هيلوزوية) على محمل الجد، أي فرضية المادة الحية، ربما أدى ذلك إلى المزيد من الحياة. قبل كل شئ ينبغي على المرء ألا ينسى أن طاليس – هو ابناً لميناء، يقع أيضًا على دلتا أحد الأنهار- (نهر مايندر، المترجم) – وأن قوة البحر والمياة الجبارة كانت دائمًا أمام عينيه. إجتياح البحر العاصف للشريط الساحلي بأكمله، عندما كان لا يلتهم السفن فحسب بل الأحياء السكنية ويشكل ألسنة أرضية وجُزر جديدة، وتدمير الأنهار للسدود، وشقها لطريقها وسط الطبيعة الجبلية، و انجراف التربة صوب البحر، التغيير المستمر لموطن الحياة المألوف، سقوط المطر الغزير يُبدل الأرض القاحلة ومساحات الأرض الجرداء إلى مراعي خصبة. هكذا كان الماء واضحاً وملموسًا بلا جدال، ليس فقط بوصفه العنصر الذي يجعل الحياة ممكنة، لكنه يظهر كقوة تغير وتشكل الأرض كلها.

فسر أفلاطون شخصية طاليس – فيلسوف أوروبا الأول - بإحدى الحكايات الطريفة، التي تجعل منه نموذجًا أصيلاً للمفكر والباحث البعيد عن تفاصيل الحياة اليومية. ولنقرأ ما دونه أفلاطون: "كان طاليس يراقب النجوم في الليل، وفي إحدى المرات وهو ينظر للسماء وقع في بئر. وشهدت الواقعة خادمة ذكية من "تراقيا"، وكانت تتمتع بخفة الظل فسخرت منه قائلة: أتبحث في السماء عن سرها، وأنت عاجز عن رؤية ما بالقرب من قدميك[5]" . تنطوي الحكاية بالطبع على مغزى وهو أن الفيلسوف الذي توصل لمبدأ العالم الأساسي، هو ذاته يسقط في بئر. لكن أفلاطون أبرز شيئاً مختلفاً تماماً. فهو أراد بهذه الحكاية أن يبين غرابة الفكر الفلسفي عامةً في خضم الحياة بالنسبة للمواطنين العاديين. يهتم (الفيلسوف) فقط بالإجابة عن الاسئلة النظرية والأساسية ويبعد بمسافة ما عن كل الأشياء التي يوليها الأخرون قدرًا أكبر من الاهتمام: مثل الكسب السريع للمال، الحصول على السلطة السياسية، أو حتى متابعة مغامرات الجيران السرية. لهذا ووفقاً لأفلاطون فإن الخادمات يصلحن للتعاطي مع تفاصيل الحياة اليومية أكثر من الفلاسفة، فهن صاحبات مهام مختلفة تماماً. أما المواطنون الساخرون، فهم أنفسهم يعيشون في ما يشبه البئر، في كهف الجهل المُظلم.

ومع ذلك لا يمكن تصور طاليس كحالم مغترب عن العالم وغير مساير له. فجميع الشهادات المذكورة أعلاه تشير إلى اتجاه مخالف تماماً، وتظهره كعقل ذكي وعلى وعي بكيفية حل القضايا النظرية والعملية بشكل واقعي. يُشاع أنه كان عالم رياضيات كبير، ويعود إليه الفضل في إثبات أن جميع الزوايا التي على قوس نصف الدائرة هي زوايا قائمة. هذا البرهان يطلق عليه لليوم "مبرهنة طاليس". كما استخدم إمكاناته الرياضية في تطبيق عملي بقياس ارتفاع الأهرامات المصرية من خلال الظل. إضافة إلى تصاميمه في علم الفلك الطبيعي، التي من خلالها أمكن تحديد الاتجاهات السماوية، واختراعه أداة قياس يمكن من خلالها حساب المسافة التي تبعدها السفن التي تقترب من الميناء. وقد فسر حدوث فيضانات النيل من خلال الريح التي تحتجز الماء. كما أنه تنبأ بكسوف الشمس، واستطاع كبح نشوب الحرب بين الليديين والمدريين، فقد نصح المدن الأيونية المتحاربة آنذاك بأن تكوِّن تحالفًا وثيقًا فيما بينها استعدادًا لصد الخطر المحدق الذي تمثل في الفرس. بل ورافق الملك كرويسوس في حملته على كيروس، وتمكن جيشه من اجتياز أحد الأنهار عن طريق بناء معبر. كما استخدم قدراته على التنبؤ أيضًا كاقتصادي فطن: فقد توقع محصولاً وفيرًا من الزيتون، وحقق مكاسب كبيرة، من خلال استئجار جميع معاصر الزيتون – فقط ليثبت، أن الفلاسفة قادرون على أن يكونوا أثرياء، إن أرادوا، لكن ذلك لم يكن بالأمر الذي يجب عليهم أن يطمحوا فيه.[6] عُد طاليس في العالم القديم من الحكماء السبعة ، وذلك بسبب قدراته الرياضية والتقنية تحديدًا، فوفقًا للأسطورة فقد خرج فائزاً من مسابقة بين هؤلاء الحكماء، حتى أنه كان يُعتبر الأكثر حكمة بين الحكماء السبعة.

على الرغم من أن الشهادات عن إنجازاته مشكوك فيها بقوة، فإنها توضح أمرين: بالنسبة للفكر القديم كانت الفلسفة والعلوم لا يزالان نفس الشئ، وأن طاليس لم يكن مفكراً منغلقاً على أفكارة – رغم وصفه لنفسه أنه شخص انطوائي ورجل غريب الأطوار[7] - لكنه كان ممارساً ذكيًا وفعولاً في الحياة العامة، سواء في الأعمال التجارية أو السياسة. ومن المؤكد أن هناك أشياء حفزت اهتمامه بإيجاد حلول تقنية للمشكلات، ولم يكن ولم يكن آخر تلك المحفزات البحر. إذا أراد الإنسان الثبات والبقاء على قيد الحياة فوق الماء، فيجب عليه استنفار كل قواه العقلية بهدف التغلب على مخاطر ذلك العنصر الغريب والحد من مخاطرها. وقد أوضح المؤرخ العالمي الإنجليزي أرنولد جى. توينبي جميع التطورات الثقافية بأنها عبارة عن: إعطاء إستجابات إبداعية على التحديات. "التحدي والاستجابه" هو محرك التاريخ البشري، حسب قوله. ويمكن اعتبار فكر طاليس مثالا لذلك، بوصفه استجابه على تحديات البحر، ومن ثم نقل الحكمة المكتسبة إلى مجالات أخرى.

لا يوجد فيلسوف آخر اشتهر بسبب فكرة واحدة فقط كطاليس، الذي اشتهر عبر فكرة واحدة، لم تصلنا صيغتها اللغوية الأصلية، إلا إن طاليس أتى بعملين جليلين في آن واحد. كان أول من أرجع كل شئ إلى مبدأ واحد، ورأى ذلك المبدأ في الماء، الواضح للجميع أنه شرط الحياة، وتأكد فيما بعد على نحو متزايد أنه مكان نشأتها. وكان جوته مهتماً بشكل خاص بالجانب الثاني عند طاليس، وهو أن الماء واهب الحياة.

في ليلة فالبورجيس الكلاسيكية من الجزء الثاني من مأساة فاوست ... يدفع جوتة بحشد من الشخصيات الأسطورية، مثل السيرينات والنريدات والترايتونات، كما يظهر الفيلسوف طاليس يخوض نقاشًا مع فيلسوف قديم آخر هو اناكساجوراس، وعندما أراد "هومونكلوس (الإنسان الصناعي) زيارة هذين الفيلسوفين، قال مفسيستوفيليس:

"أفعل هذا من تلقاء نفسك ! حيث تحوم الأشباح فإن الفيلسوف مرحب به.

وحتى تتمتعوا بفنه ورضاه، فإنه يخلق اثنى عشر شبحاً جديدًا"[8]

لكن طاليس واناكساجوراس لا يستحضران أي أشباح البتة في ليلة فالبورجيس، بل على العكس من ذلك، فهما عند جوته يعيدا تمثيل الحزبين الجيولوجيين في نزاعهما معًا في عام 1800: بين ما يسمى النبتونيين، الذين يرجعون تضاريس الأرض لتطور البحر وبين البلوتونيين أو البركانيين، الذين أرجعوا السبب للحمم البركانية.[9] كان تعاطف جوته الكبير مع

طاليس ومع أنصار النبتونية واضحًا بشدة، في حين أن المرء لا يعرف الكثير عن حزب البراكين، ويظهر البحر بشكل دائم بوصفه مكانًا لنشأة الحياة، وأخيرًا جعل جوته مُفكر الماء طاليس يهتف فرحاً:

سلاماً، سلاماً بالجديد!

كم أشعر بسعادة غامرة

مُفعم بالجمال والحق

كل شئ نبع من الماء!!

كل شئ إنما بقي بالماء!

أيها المحيط، هِب لنا مشيئتك الأبدية!

إن لم ترسل الغيوم،

ولم تهب الجداول بسخاء،

ولم تجر الأنهار هنا وهناك،

ولم تُكمل فيض، كيف ستكون الجبال

والسهول بل والعالم؟

أنت من حافظ على الحياة الغضة.[10]

حتى فلاسفة العصر الحديث العظماء أبدوا دوماً لطاليس الإجلال والاحترام، وحاولوا في لغة اختصاصهم فهم جوهر فكرته بوصفها فلسفة كبيرة الشأن. وسوف يتضح ذلك بإجاز في مثالين استحضرا الجد الأعلى للفلسفة، واللذان يمكن التعرف عليهما في كتابات هيجل ونيتشه، فكلاهما معجب بفكرة إرجاع كل شئ لمبدأ واحد عميق.

في محاضرته حول تاريخ الفلسفة عَلَّم هيجل طلابه أن من "جسارة العقل الكبيرة ألا تترك كل ما هو موجود في العالم الطبيعي على حاله، وإنما أن تقلصه وترجعه إلى جوهر بسيط، وذلك الجوهر البسيط هو الذي يبقى". وهكذا وضع طاليس بتفكيره المنطق الكامن في جوف أسطورة أوقيانوس القديمة تحت دائرة الضوء. هذا الجوهر البسيط للفكر،الذي هو ملئ كل شئ، ويمكن معرفته بشكل عام وحقيقي.

أخيراً، فالماء بالنسبة لطاليس ليس شيئًا، ليس عنصرًا من بين العناصر الأخرى، مثل التراب والهواء والماء، وأيضاً ليس موضوعا في مجال مغاير مُتعال، الذي غالبًا ما يتصور الناس الرب فيه، على العكس من ذلك كان الماء بالنسبة لطاليس إلهه و"إله كل شئ"، والواقع الوحيد الأصيل، والجوهر الحقيقي لكل شئ.بحكم أن الماء يفتقد للقوام، فسيولته تشير للحياة. "تُعد مقولة طاليس أن الماء هو المطلق، أو كما قال القدماء هو المبدأ، مقولةً فلسفية، وقد بدأت الفلسفة بها، لأن أيقظت الوعي بأن الواحد هو الحق، وحده الموجود في ذاته ولذاته" – الذي هو قائم من خلال ذاته ولا يحتاج لأي شئ آخر. في حين كان جوته مفتونًا بطبيعة الماء، أكد هيجل فكرة طاليس العامة، بأن ثمة مبدأ واحد، واقع حقيقي دائم.

"هذا هو الأمر الفلسفي: الواحد هو الحق." [11]

© 2017 Litrix.de

كان تفسير هيجل أن الماء لم يكن بالنسبة لطاليس شيئا ما بين أشياء أخرى، بل هو الرابط والمبدأ العام المتغلغل في كل شئ، والذي لم يكن موجودا في الإدراك هكذا وحسب، وهذا ما أكده نيتشه في وقت لاحق، وبخلاف ذلك لا يكاد يشارك هيجل أيا من أفكاره. كانت أطروحة أن مع طاليس بدأت الفلسفة في العالم أيضاً بالنسبة لنيتشه مقنعة وصحيحة ، ومن خلال المبدأ الأساسي، برغم كونه ما يزال متداخلا مع التصورات القديمة.

"يبدو أن الفلسفة الإغريقية بدأت بفكرة غريبة، وهي القول بأن الماء أصل ومهد كل شئ. ولكن يمكن أن نتساءل هل من الضروري حقًا أن نتوقف عند هذه المقولة ونأخذها ماخذ الجد؟ - نعم، وذلك لثلاثة أسباب: أولاً لأن الجملة تتناول شيئاً عن أصل الأشياء، وثانيًا لأنها تناولته دون صور وبعيداً عن السرد الأسطوري، ثالثًا وأخيرًا، لأن العبارة تضمنت ولو بشكل أولي فكرة "أن الكل واحد". وفقًا للسبب الأول فإن طاليس كان لا يزال ينتمي لطائفة المفكرين الدينيين وممثلي الخرافات، لكن السبب الثاني يخرجه من هذه الطائفة ويقدمه لنا كأول علماء الطبيعة، أما السبب الثالث فيجعل من طاليس أول فيلسوف إغريقي. بطاليس انتصر ولأول مرة الإنسان العلمي على الخرافة، ومرة أخرى انتصر الإنسان الحكيم على العلمي."[12]

إذا كانت ثمة إمكانية للاعتقاد بأن الفيلسوف الأول كان في نفس الوقت بسبب مبدأه المادي، المادي الأول، فإن هيجل وكذلك نيتشه الناقد قد عارضا تلك الفكرة وقدما تفسيرًا مغايرًا. تعد مقولة أن: "كل شئ واحد"مبدأ نظرية وحدة الوجود، التي ترى بوحدة الكون مع الرب. كانت حكمة طاليس بالنسبة لنيتشه تكمن في قدرته على استيعاب تلك الفكرة، وأنه لم يقف جامدا مثل العلوم في موقفها من المادة المُدركة حسيا. وهكذا لم تضحد العلوم الحديثة كلام طاليس كما لم تتجاوزه بأي حال من الأحوال، بل ما زالت هذه العلوم يمكن أن تتعلم منه. وقد وُصِف فكر طاليس كفلسفة "اتحاد" (حلول الربوبية في الكون) أو – بسبب العالم المفعم بالروح - وصفت أيضًا بأنها فلسفة روحية شاملة (بمعنى أن الروح خاصية مشتركة بين كل الأشياء).

إذا كان كل شيء ينشأ من الماءفإن هذا لا يجب أن ينطبق بالضرورة أيضًا على الإنسان؟ لا يُعرف شيئًا عن رأي طاليس عن ذلك. لكن صديقه وتلميذه أناكسيماندر، الذي كان هو الآخر مواطنًا من ميليتوس، أعلن عن ذلك وبشكل صريح وفقًا لمصادر قديمة. ولم يكن المبدأ عنده هو الماء، بل "اللانهائي"، غير المحدود، الأبدي، مبدأ بدون هوية مادية محددة، سعة كونية خالصة. تحللت فكرته عن المبادئ من كل رؤية سابقة، لكنه رأى أيضًا أن الحياة نشأت من الماء، نشوء تدريجي، شيئاً فشيئاً من خلال التطور. فمن الماء والتربة ومن خلال الحرارة نشأت الأسماك أو كائنات حية تشبهها، وضمن هذه الكائنات نشأ البشر، الذين انفصلوا فيما بعد عن هذه الحيوانات وصاروا كائنات مستقلة. وجرى ذلك بالطبع في البحر عبر ثلاث مراحل. كان البحر بالنسبة لأناكسيماندر مجرد بقية من الفيضان الذي كان يغمر الأرض كلها، وجففت النار، أي الشمس، الجزء الأكبر من مياه الفيضان، وبتعرض الجزء المتبقي للغليان صار البحر مالحًا.[13]

ومن اللافت للانتباه أنه مع بداية الفلسفة افترض المرء أن بداية الحياة في البحر، وهكذا وصل للقناعة التي كان من المفترض أن يتم تعزيزها في وقت لاحق من قبل العلوم عالية التقدم. وهكذا مد الإنسان، حيوان اليابسة، جسرًا فكريًا صوب هذا العنصر الغريب عنه. وعلى الرغم من أن البحر بحجمه الذي لا يعرف له مدى ومخاطره التي قد تبدو هائلة، استطاع هذا الحيوان الذكي الذي يمشي على ساقين من خلال الملاحة البحرية أن يجعل البحر خادمًا له، بل وظل من خلال نظريته مرتبطا به بوصفه مجال نشأة كل حياة، وبالتالي كان أيضا في نهاية المطاف مكان نشأته الأولى.

© 2017 Litrix.de

ملحق

ملاحظات

مقدمة

إبحار في الفلسفة

1. رالف كونرسمان: الفلسفة والبحر. في: مجلة " نبرات" الأدبية، العام الخمسون، الإصدار الثالث (2003)، ص.218 – 233- كلوس أرتور شاير: بين اليابسة والبحر. ملاحظات فلسفية حول التاريخ الثقافي المنصرم للبحر لكارل شميت. في : النشرة العلمية للمؤسسة العلمية في براونشفايج، مجلد الرابع والخمسون، براونشفايج 2005، ص. 251 – 263 – وكذلك الارتباط الوثيق مع كتاب ديتر ريختر: البحر، تاريخ أقدم طبيعة. برلين 2014.

2. جيورج فيلهلم فريدرك هيجل: كلمة افتتاحية مع بداية تدريس (هيجل) لمادة الفلسفة في جامعة برلين (1881). إصدارات العمل النظري، الناشر: إيفا مولدنهاور وكارل ماركوس ميشيل. فرانكفورت/ ماين. 1970، المجلد العاشر، ص. 416. – هنا وفي ما يلي سيتم تكييف طريقة الكتابة في الاقتباسات من أجل قراءة أفضل.

.1

الماء بوصفه المبدأ الأساسي

1. أرسطوطاليس: ما وراء الطبيعة، 983، ترجمة هرمان بونيتس، مقارنه: فولفجانج شاديفالدف: بداية الفلسفة عند الإغريق. فرانكفورت/ماين 1978، ص. 213- 234.

2. أرسطوطاليس: ما وراء الطبيعة، 983، هوميروس: الإلياذه الفصل الحادي والعشرون، 195 – 197.

3. هوميروس: الإلياذه، الفصل الرابع عشر، 201. الأوديسه، الفصل العاشر، 139.

4. فيلهلم كابيله (ناشر): فلاسفة ما قبل سقراط. شتوتجارت 1961، ص. 72

5. أفلاطون: التينيتتس، 174 . أنظر هانس بلومبرج: سُخرية التراقية. حكاية قديمة عن النظرية. فرانكفورت/ماين 1987.

6. أرسطوطاليس: السياسة، 1259

7. ديوجانس لاريتي: سيرة حياة وآراء الفلاسفة المشهورين، ترجمة أوتو ابيلت. هامورج 1967، ص. 15.

8. أعمال جوته، طبعة هامبورج في 14 مجلد، المجلد الثالث، ص. 238.

9. هيلموت هولدر: قصة مختصرة لعلم الجيولوجيا وعلم الحفريات المتحجرة. برلين 1989، ص. 36.

10. جوته، المصدر السابق، ص. 255.

11. جيورج فيلهلم فريدرك هيجل: محاضرات حول تاريخ الفلسفة. اصدارات العمل النظري، المجلد الثامن عشر، ص. 195 – 209.

12. فريدرك نتشه: العلم والحكمة في المعركة، الأعمال الكاملة في ثلاث مجلدات، المجلد الثالث، ص. 346.

13. فيلهلم كابيله، المصدر السابق، ص. 86 و80.

© 2017 Litrix.de